الحاج خواجة كمال الدين

(١٨٧٠ — ١٩٣٢)

للأستاذ أرسلان بوهدانو وكز

بقلم الأستاذ على محمد سرطاوى

«الأستاذ أرسلان بوهدانو وكز كاتب هذا المقال الرائع، مسلم بولندى ، قد تخصص فى التاريخ الإسلامى ، وهو مؤرخ نابه ، وكاتب ذائع الصيت . . . . نشره فى عدد ديسمبر سنة ١٩٤٩ فى مجلة إسلامك ريفيو بمناسبة مرور ١٨ عاما على وفاة خواجا كمال الدين ، ترجماه لقراء الرسالة القراء بمناسبة سماح الجمعية الاسلامية فى وكنج — لندن — لنا بترجمة كتاب خواجة كمال الدين « النبي المثالى » إلى اللغة العربية ، وكذلك كتابه الآخرين « مصادر الديانة المسيحية » و « لماذا اختار الإسلام دينا »

ومجلة الرسالة المجاهدة فى خدمة الاسلام أحرى المجلات، بأن يتلاقى القراء على صفحاتها ببطل من أبطال الاسلام الخالدين ، الذين تنحنى أمام بطولتهم وأعمالهم الخالدة الرؤوس »

ع . م . سرطاوى

قال الخواجة كمال الدين فى تعليقه على شرح بعض آى الذكر الحكيم :

« الحب الصحيح يبدو فى شعور الإنسان وأعماله التى تنير ما حوله من ظلام ، وتدفعه إلى التحليق فى آفاق الخير بكل ما يستطيع من عزيمة »

وهذا التعليق يصدق إلى حد بعيد على ما قام به من أعمال ، وعلى ما يحمل له الناس فى قلوبهم من إكبار عميق ، فى الحدود الضيقة التى تستطيع لغة الإنسان المحدودة التعبير فيها عن أروع ما فى الحياة الإنسانية من جمال وسمو بعيد . . . ولكم يجد من الصاعب إنسان ضعيف مثلى ، وهو فى سبيل التحدث عن أعمال وحياة عبقرى ، لم تشابه حياته حياة الآخرين ؛ ولكننى وأنا أقتحم هذا المسلك الوعر ، لا يدفعنى إلى ذلك واجب الوفاء لذكراه فحسب ، ولكن لأملأ جوانب نفسى بالإيمان، وأنا أصف حياة إنسان كان المثل الرائع لما يجب أن يكون عليه كل مسلم . ولكننى وأنا أتحدث عن ذكرى المؤمن الذى أسس فى عاصمة الإنجليز مسجد « وكنج » ومجلة « إسلامك ريفيو » ، أتطلع إلى اليوم الذى ينهض لمثل هذا العمل الجليل من هو خير منى وأقدر على تصوير هذه الحياة وأعماله الباهرة التى ألقى على أكتافنا عبء الاستمرار فيها ، تلك الأعمال التى نهضت بديننا الحنيف الذى يهدف لخير الإنسانية

حياته :

ولد الحاج خواجة كمال الدين سنة ١٨٧٠ فى البنجاب ، من أسرة كشميرية ذات مكانة فى المجتمع الهندى ؛ اشتهر ماضيها بخدمة الإسلام . كان جده عبد الراشد شاعرا مشهورا ، جلس على منصة القضاء الإسلامى فى مدينة لاهور رئيسا للقضاة أثناء حكم السيخ ، وكان أخوه الأكبر خواجا جمال الدين المسؤول عن نشر التعليم بين المسلمين فى كشمير وإمارة جامو ؛ لذلك نستطيع أن نعزو إلى الوراثة من أسرته ، أقباسا من تلك العزيمة الجبارة التى جعلته داعية لا يشق له غبار فى خدمة الإسلام

وابتدأ تعليمه فى كلية « فورمان » المسيحية فى لاهور ، وإلى هذه الكلية تعزى معرفته العميقة بأسرار الديانة المسيحية ، وأدق التفاصيل فى الكتاب المقدس ، وكان لهذا الاطلاع العميق أثره المباشر فى التغلب على رجال الدين من المسيحيين فى المناظرات العامة التى كانت تقام بينه وبينهم فى لندن . وحصل على درجته الجامعية (ب . ع .) عام ١٨٩٥ ، وتسلم وسام جامعة البنجاب فى العلوم الاقتصادية ، وهذا النجاح مهد إليه الطريق لكرسى الأستاذية فى التاريخ والاقتصاد فى الكلية الإسلامية فى لاهور ، وبقى هناك أربع سنوات أصبح فى نهايتها مديرا لهذه الكلية . وبعد حصوله على بكالوريوس الحقوق عام ١٨٩٨ اشتغل محاميا ناجحا فى بشاور مدة سنوات ست ، وعاد عام ١٩٠٣ إلى لاهور حيث أصبح من المحامين الممتازين فى محكمة البنجاب العليا ، كان فيها موضع احترام القضاة والناس بلا استثناء ، وبقى فى لاهور حتى شد الرحال إلى بلاد الإنجليز عام ١٩١٢

وفى بداية هذه الفترة من حياته الأخيرة فى لاهور ، أخذ يحس إحساسا عميقا بالهوة التى يتحدر إليها الإسلام تدريجيا من الانحلال والتراخى ، ولهذا السبب راح يستعمل ما عنده من أوقات الفراغ فيطوف فى أرجاء الهند ملقيا المحاضرات عن الإسلام. ولم يمض على عمله هذا غير وقت قصير حتى اعترفت الجامعة الإسلامية فى إليجات Allgat بما أداه الاسلام من خدمات فقررت منحه عضويتها ، وأصبح فى نفس الوقت أحد أمناء مجلسها العلمى

السفر الى لندن :

كان فى قمة النجاح عام ١٩١٢ ، وكان ذلك النجاح يبشر بمستقبل باهر عظيم ، ولكنه وهو فى رأس تلك القمة ، استمع إلى نداء يدوى فى أعماق شعوره ، فلبى النداء ، وأشاح بوجهه عن الذهب الذى كان يتساقط على أقدام مجده فى بلاد الهند ، وأقبل على طريق مملوء بالأشواك وعلى مستقبل غامض اليقصر ما بقى له من تلك الحياة على خدمة الإسلام. ولكى يستطيع القيام بذلك على أحسن وجه اختار طريقا موحشا لا أنيس فيه ، فبدلا من البقاء بين مواطنيه ، قرر أن يغترب مدافعا عن قضية الإسلام فى المكان الذى كان يتلاعب بمقدرات العالم الإسلامى يصرفها كما يريد ... قرر أن يذهب إلى أوربا واختار مدينة لندن مركزا دائما لذلك النشاط الذى تكاد تطل عليه أطياف عابسة منه من وراء آفاق الغيب

إن المؤرخين الذين كتبوا عنه بعد وفاته عام ١٩٣٢ ، والذين كان ينقصهم التعمق فى الدرس ليصلوا إلى الحقائق المجردة من التاريخ ، لم يعطوا هذا القرار ما يستحقه من تقدير ، ولكننا ونحن فى نهاية سنة ١٩٤٩ ، وقد حصل كل قطر إسلامى تقريبا على استقلاله السياسى ، ولاسيما فى الهند ، نستطيع أن ندرك خطورة ذلك القرار بإعلان الجهاد عن طريق الدعوة إلى مبادئ الاسلام ، وأن نعطيه ما يستحقه من أصالة رأى وعبقرية فذة ، ولعله كان إلهاما من الله ليتم على يديه المعجزة فى بلاد الإنجليز . ولكى ندرك تمام الإدراك أخطر هذا القرار علينا أن نعرف ماذا كان يعنى عام ١٩١٢ فى تاريخ الإسلام والمسلمين

أقاليم العالم الاسلامى مظلمة عام ١٩١٢

تعتبر سنة ١٩١٢ ابتداء ذلك العصر المظلم فى تاريخ الإسلام الذى انتهى عام ١٩١٨ بالقضاء على استقلال آخر دولة إسلامية هى تركيا ؛ فإن هذه الدولة بعد خسارتها طرابلس آخر أملاكها فى أفريقيا سنة ١٩١٠ ، كانت على وشك خسارة مماثلة فى أوربا عام ١٩١٢ نتيجة مباشرة لحرب البلقان الدامية . فإذا أضفنا إلى ذلك قيام حركة وطنية ، فى تلك الآونة ، أخذت تمكن لنفسها فى تركيا ، مندفعة وراء مبادئ مخالفة لتعاليم الإسلام ، استطاعت هذه التعاليم بعد سنوات عشر أن تبعد تركيا عن زعامة العالم الإسلامى ، أدركنا تمام الإدراك التيارات العتيقة التى كانت تعبث بفلك العالم الإسلامى والمسلمين فى ذلك الوقت

إن قرار خواجة كمال الدين فى الدعوة إلى الإسلام فى أوربا يبدو محيرا غريبا لأولئك الذين لا تدرك بصائرهم وراء مظاهر الأشياء والحوادث ، ولذلك لا يبدو محيرا ما أجره عمله الجرىء هذا عليه من عداء أولئك الذين فى قلوبهم مرض ، وأولئك الذين يريدون خدمة الإسلام بأضعف الإيمان ، وبأقل من ذلك ، بأمور ووسائل لا تتجاوز الصلاة وجلب المنافع لأنفسهم عن طريق هذا الدين

والآن ، وبعد مرور سبعة وثلاثين عاما ، والإسلام يحتل المركز اللائق به فى شؤون العالم السياسية ، أصبح من اليسير الحكم على صواب ما رأى وما عمل خواجة كمال الدين . ومن الحق أن عظمته الحقيقية ما كانت لتبدو على فطرتها لو لم يتخذ مثل هذا التصميم فى خدمة الإسلام . ومن حسن الحظ أنه لم يكن من ذلك الطراز الذى يجرى وراء الحوادث ، وإنما كان من ذلك النوع الذى تجرى الحوادث لاهثة متعبة وراء قدميه . لقد استبق معاصريه بخطواته الجبارة ، فكان الفذ الذى لا يجارى ، والسباق الذى لا يشق له غبار ، والبطل الذى تزيل إرادته الجبال ، فاضطلع بتلك الأعمال الخطيرة ورسم المستقبل

واضحا لغاية كريمة واضحة

والواقع أن العالم الإسلامي عام ١٩١٢ كان في حاجة ماسة إلى تقوية نفوذه في أوربا مركز الاستعمار، الذي كان يتوقف عليها مصيره، وبعبارة أخرى كان هذا العالم في حاجة إلى سفير في تلك القارة لا يمثل أمة أو بلدا من بلاد الإسلام، وإنما يمثل ما في روح الإسلام من مثل إنسانية رائعة لا يعرفها الناس هناك. ويحسن ونحن نتحدث عن أوربا أن نذكر كيف كان الناس هناك ينظرون إلى الإسلام والمسلمين. ولكي يأخذ الإسلام المكانة اللائقة به، لم يكن هنالك مناص من إثارة عظمة الإسلام وأمجاده في نفوس المسلمين أولا، وأن يؤمن أولئك المسلمون الذين امتلأت ضمائرهم وقلوبهم بمركب النقص، من جبروت الاستعمار وظلم المستعمرين وفقدان الكيان السياسي، بأنفسهم إيمانا صحيحا صادقا. وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف كانت هنالك ضرورة ملحة تتعلق بشباب المسلمين الذين هرعوا في القرن العشرين إلى جامعات الغرب يتلمذون على الحضارة الغربية، والذين راحوا تحت تأثير هذه الحضارة يتحللون من كل ما يفرضه عليهم الدين الإسلامي من واجبات وما ينهاهم عنه من محرمات. لذلك كان من الضروري مقاومة هذه الأمور الخطيرة في المكان الذي تنتشر منه، وباللغة التي تنتشر بها، وأصبح من الضروري أيضا أن يفهم الشباب المسلمون الخطر الذي يتوارى وراء مادية الغرب والتطور الصناعي الجارف، والميل إلى التحلل من كل ما يمت للانسانية بصلة، وما بحثه في جهادها الطويل، والمثل الروحية التي أدى الإسلام دورا خطيرا في بثها وإشاعتها في الوجود. وأخيرا أصبح من الضروري أن يقام في أوروبا الغربية مركز يجتمع فيه المسلمون للصلاة دون أن تحول بينهم الفوارق القومية أو الطائفية

وإذا كان اتخاذ قرار خطير يتطلب شجاعة عظيمة، فإن تنفيذ مثل هذا القرار يتطلب صفات أخرى لا تقل أهمية عن اتخاذ القرار نفسه، قلما وجدت مجتمعة في شخص واحد، يجيد الخطابة والكتابة، والتنظيم، والاقناع، ذي جلد على العمل الذي يحطم الأعصاب، وأن تسند كل ذلك ثقافة عميقة شاملة، واطلاع واسع المدى. ولكن إرادة الله شاءت أن تجتمع هذه الصفات في خواجة كمال الدين. لقد كان، رحمه الله، فارسا من فرسان البيان، ولسانا من ألسنة الحق، ومنقطع النظير في البلاغة وقوة الحجة والاقناع، وقد ترك من الآثار الأدبية تراثا رائعا عظيما سيأتي الحديث عن بعضه في مكانه من هذا المقال

لقد كان الطريق إلى النجاح الذي وصل إليه في أوربا محفوفا بالأشواك، ولكنه لم يبال بكل ذلك، ولم يكتف بالوصول إلى درجة لا تبلغ في عمقها وشمولها من الثقافة الإنجليزية، واللغة التي تحمل هذه الثقافة، وإنما هضم الفلسفة الأوربية هضما لم يتيسر لإنسان قبله، فكان يحاضر أرقى الطبقات في أعقد مشاكل الفلسفة الألمانية في سهولة ويسر وبراعة لا يشق لها غبار

أما قدرته على العمل فكانت شيئا لا تحتمله الطبيعة البشرية، وأدى ذلك الإجهاد إلى موته في غير أوانه. وإذا قيس العمل بالنتائج كان عمله معجزة من أثارة قدرة الله. وعلى الرغم من وصوله القمة في ذلك النجاح، لم ينقطع عن مواصلة السعي في خدمة الإسلام، حتى في سنواته الأخيرة التي قضاها محطم الأعصاب، خائر القوى. ولقد مات، رحمه الله، وجزاه عن الإسلام خير الجزاء، وهو يكتب تعليقا على بعض سور لتنشر في العدد التالي من المجلة التي أسسها، مجلة إسلامك ريفيو

أما مقدرته الخطابية فتبدو جلية في سيطرته على الجماهير المثقفة من الإنجليز نسوا الساعات الطويلة وهو يتحدث عن الإسلام وكأنها مسحورة، تحملها نشوة جارفة إلى آفاق من الحق والخير

ولما وصل إلى لندن، استقر به المقام، بادئ ذي بدء، في (ريشموند) وبدأ في الحال يلقي المحاضرات، والخطب، ويشترك في اجتماعات الجمعيات اللاهوتية الانجليزية، وينشر المقالات في الصحف والمجلات، وما لبث أن احتل مركزا ممتازا بين رجال اللاهوت في العاصمة البريطانية. وقبل أن تواتيه الظروف لتحقيق هدفه العظيم في نشر الاسلام في بريطانيا، مدت العناية الالهية يدها إليه في تلك الوحدة، فعلم بوجود مسجد في ضاحية (وكنج) وقد استطاع الاستيلاء عليه في الحال، فكانت هذه الحادثة بداية الطريق إلى نجاحه العظيم

الكلام سلة

علي أحمد سرطاوي